النكتة سلاح المصريين لتخفيف معاناتهم بالسخرية المصرية..

ذكر ابن خلدون فى مقدمته : « أن أهل مصر يميلون إلى الفرح والمرح , والخفة ,والغفلة عن العواقب «. وربما يفسر هذا أن المصريين كانوا يُحكمون بواسطة حكام أجانب معظم مراحل تاريخهم ,وكانوا يقبلون ذلك سماحة أو طيبة أو غفلة أو تهاونا أو رغبة فى الراحة والاستقرار .وحين كانت تشتد بهم الخطوب نتيجة عسف الحاكم الأجنبى المستبد والمستغل كانوا يستعينون بالنكات اللاذعة والسخرية لتخفيف إحساسهم بالمرارة مما يعانون ,وكان سلاح السخرية يؤجل الثورة وربما يجهضها لأنه يعمل على تنفيس الغضب الكامن .ولم يتغير الأمر كثيرا حين تحررت مصر من الحاكم الأجنبى إذ جاء الحاكم الوطنى يحمل سمات الاستبداد ,فلم يشعر المصرى بحريته وكرامته ..وفى نفس الوقت يشعر بالعجز فى مواجهة السلطة فيلجأ للنكتة ولو كحل مؤقت .

فحين تحاصر المصرى الهموم والأزمات، وتثقل عليه ,وتنقلب أمامه الأمور تقلبا لم يشارك فيه , فإنه يشارك فى الأحداث بالتعليق الساخر عليها , ويطلق النكتة بعد النكتة ,فيضحك ,ويخفّف بذلك من التوتر العصبى الذى كان يمكن أن يدفعه إلى الغضب ,ويستريح بما تحققه له السخرية بالذين انفردوا بالعمل من دونه ,وتصرفه عن الواقع إلى عالم من الخيال والمرح ,وهذا ما جعل أحمد أمين يقول فى كتابه الشهير « قاموس العادات والتقاليد المصرية « : إن النكتة كانت سلاحا مصريا يلجأ إليها المصرى« تعويضا عما أصاب الشعب من كبت سياسى واجتماعى , وتنفيسا له من الضائقات التى تنغصه , مما يجعل الحياة أمرا محتملا .والنكتة عند المصريين تختلف عن النكتة عند غيرهم من الشعوب ,فهى أولا إحدى السمات المميزة للشخصية المصرية ,فهو يستمتع بتأليف النكتة والاستماع إليها حتى لو تكرر سماعه لها ,وأهم الوظائف التى قامت بها النكتة المصرية هى التغطية على الموضوع ,وأخذه على المحمل الهيّن , والانصراف عنه انصرافا يعفى من التفكير فيه تفكيرا جديا وكأن« فرقعة« النكتة تكفى لإنهاء المشكلة أو هى فى حد ذاتها حل لها.

وكانت النكتة المصرية فى الماضى عبارة عن كلمات أو اسكتشات يطلقها أشخاص لا يعرفهم أحد وتنتشر بين الناس بسرعة كبيرة حتى فى عصر كانت تغيب فيه وسائل الاتصالات الحديثة ,لذلك كانت النكتة عبارة عن تكثيف شديد لمعان عميقة تنطلق فى صورة لطيفة ومبهجة لتحقق هدفها من التنفيس أو السخرية أو توصيل رسالة ما .وكان ثمة محترفون لإلقاء النكت مثل حمادة سلطان وغيره .وكانت هناك أشكال أخرى من التعبيرات الساخرة فى صورة مونولوجات وكان بطلاها الرئيسيان محمود شكوكو وإسماعيل ياسين .ولا ننسى أبو لمعه (رمز الفهلوة المصرية) وهو يمارس التنكيت على «الخواجة بيجو» الذى يبدو مندهشا فى سذاجة وحائرا بين التصديق والتكذيب لما يدّعيه أبو لمعة المصرى من قدرات فائقة.

ثم يتغير الوضع قرب نهايات القرن العشرين ليدخل العالم كله فى «عصر الصورة « مع انتشار شاشات التليفزيون والكمبيوتر والموبايل ,ومن هنا تتحول النكتة المصرية إلى الرواية القصيرة المصوّرة أو

شكوكو

اسماعيل يس

حمادة سلطان

ما يُسمى بالكوميكس ,وقد ساعد على انتشار هذا اللون الفكاهى الجديد بعض الصحف والمجلات التى طوّرت الكاريكاتير ذا الصورة الأحادية إلى شريط قصير من ثلاث إلى خمس صور تلخص موقفا سياسيا أو اجتماعيا ساخرا , ثم تطور الأمر أكثر مع انتشار مواقع التواصل الاجتماعى لكى يتحول هذا الفن إلى ممارسة شعبية فلم يعد يقتصر على المحترفين من الرسامين وإنما انتقل إلى أيدى عامة الناس وخاصة الشباب الذين راحوا يقتطعون صورا ومشاهد وأيقونات لأعمال فنية ويضعون عليها تعليقات تجعلها تتحول لنكتة أو حكاية قصيرة مصوّرة .

والكوميكس يختلف عن النكتة التقليدية فى كونه يستخدم تأثير الصورة بجوار تأثير اللفظ ,كما أنه يعتبر نكتة متعددة المراحل ,ويجمع بين فن الحكى القصير السريع وفن الإضحاك حيث يحوى فى كل مرحلة على مفاجأة تفجر الضحك أو السخرية اللاذعة .

والكومكس ليس غريبا على الذهنية والقريحة المصرية إذ كان قدماء المصريين يستخدمون الصورة ممزوجة بالكلمة فى تسجيل تفاصيل حياتهم ومعتقداتهم بشكل متسلسل فى هيئة شرائط مصورة (رأسية أو أفقية) على أوراق البردى وعلى جدران المعابد .

وانتشر فن الكوميكس إبان ثورة يناير حين كان الشباب يجلس لساعات طويلة فى الميادين فيعمد إلى الجدران من حوله يسقط عليها إبداعاته الساخرة من الحكام المستبدين ومن السلطة الفاسدة التى قهرته وأذلته , وربما تفرّدت ثورة يناير عن كل ثورات العالم فى ثرائها بالأعمال الفنية والفكاهية على الرغم من قسوة الأحداث وسقوط الشهداء والجرحى.ومن هنا تحولت جدران الشوارع والميادين وصفحات التواصل الاجتماعى إلى صحف معارضة قوية تستخدم النكتة والإفّيه والحدوتة والصورة كوسائل للتعبير عن السخط العام على الأوضاع القائمة وكأسلوب للتهكم على كذب الحكام المستبدين وادعاءاتهم الكاذبة ,واستمر هذا الحال فى المرحلة الانتقالية التى أعقبت الثورة حين شعر المصريون أن ثورتهم العظيمة تُسرق أو تُختطف أو تُجهض أو تُغتال ,وأن رموز الثورة المضادة قد زحفوا بجحافلهم ليبتلعوا الثورة وشبابها ,وهنا انتقل الكوميكس من الشوارع والميادين التى أصبحت محظورة على التجمعات إلى مواقع التواصل الاجتماعى حيث السقف الأعلى للتعبير الحر بكل أدواته .

ومن الناحية النفسية فإن فن « التنكيت» سواء بالصورة أو بالكلمة ينتمى إلى نشاط «الطفل الحر» فى تكوين النفس البشرية طبقا لنظرية «التحليل التفاعلاتي» لإريك برن التى تقسّم الشخصية إلى ثلاثة كيانات وهى «الوالد» و«الراشد» و«الطفل» ,فكيان الطفل الحر هنا يسخر من الوالد المتحكّم والمتجبر والمدّعى,وينزع عنه هالات الوقار والاحترام ويكشف كذبه وادعاءه . والطفل هنا يتحلى بالنزعة الأناركية التى ترفض أى سلطة وتريد التحرر المطلق من كل القيود المجتمعية ,ولهذا ينال السياسيون والإعلاميون ورجال الدين قدرا كبيرا من السخرية اللاذعة والنكات الساخنة المنطلقة من ذات الطفل تجاه ذات الوالد فى محاولة لإهانتها واحتقارها وكسر هيبتها تمهيدا لهزيمتها وكسرها .

والكوميكس هنا يعطى لهذا الطفل الحر والمتحرر أدوات الصورة الأسطورية التى تملك قدرات لا محدودة على طريقة سوبرمان وجرينداير والرجل الأخضر وسلاحف النينجا وطرزان وباتمان وغيرهم من أبطال الكوميكس . وصور الكوميكس غالبا غير تقليدية وغير ملتزمة بقواعد الواقع فهى منطلقة بالخيال الجامح والجانح بلا حدود وبلا سقف ,وهذه طبيعة شبابية متمرّدة على كل ماهو قديم أو تقليدى أو واقعى ,وتنزع إلى الحلم والإبداع والخيال اللانهائى فى مقابل التقليدية والواقعية والخيال الكسيح وفقر الإبداع وبطء الحركة لدى الكبار وأصحاب السطوة فى المجتمع الذين يريدون أن يضبطوا إيقاعه على إيقاع قلوبهم البطيئة وقريحتهم المتكلّسة فى نظر الشباب الثائر .

وقد حدثت تحولات بشكل عام فى النكتة المصرية حيث أصبحت فى السنوات الأخيرة أكثر قسوة وعدائية وتميل إلى الاغتيال المعنوى للأشخاص أو المجموعات , وتحولت من نكتة فردية مجهولة الصاحب إلى أعمال فنية جماعية منظمة فى صورة برامج ساخرة مثل برنامج «البرنامج» لباسم يوسف أو برنامج أسعد الله مساءكم (سيد أبو حفيظة) لأكرم حسنى أو برنامج أبله فاهيتا أو برامج السيت كوم أو الستاند أب .

وقد تراجعت معدلات النكت المناطقية الموجهة نحو «الصعايدة « أو «المنايفة» أو «الدمايطة» فى مقابل تزايد مطرد للنكت الموجهة نحو السياسيين أو الإعلاميين ,وأصبح هناك اتجاه لكسر هيبة وهالة الشخصيات العامة مهما كانت قيمتها أو مكانتها .

وتطور الأمر من خلال فن استخدام الصورة والفيديو لكى يسخر الشخص من نفسه بنفسه أمام المشاهدين وذلك من خلال عرض مقاطع متناقضة للشخص ذاته تظهر كذبه وتزييفه وتلونه عبر المراحل المختلفة ومع تغير اتجاهات السلطة والمصالح . بل أصبح الشعب يسخر من نفسه حين يضبط نفسه متلبسا بالنفاق أو الخوف أو التراجع أمام بطش السلطة والتنازل عن حقوقه التى خرج ثائرا للمناداة بها ثم تقلّصت لتصبح لقمة عيش متواضعة وأمانا جزئيا يسمحان له بالبقاء المتواضع على قيد الحياة ويحمد الله على هذا البقاء ولا يطمع فى أكثر من ذلك .وفى الوقت الذى تراجعت فيه المعارضة بشكل كبير وازدادت مساحة الموالاة والحشد والتأييد فى وسائل الإعلام المختلفة ظهرت معارضة غير رسمية وغير منظمة على صفحات التواصل الاجتماعى تعبر عن نفسها بلا سقف وبلا قيود من خلال الكلمة والصورة والنكتة اللاذعة التى اعتاد الشعب المصرى اللجوء إليها وقت الأزمات الخانقة يعبر بها عن نفسه ليستريح إلى حين إشعار آخر .

د. محمد المهدى
رئيس قسم الطب النفسى
جامعة الأزهر - فرع دمياط

ألو لمعة والخواجة بيجو

أبلة فاهيتا

أبو حفيظة